الحضارة فريضة إسلامية

بقلم

الأستاذ الدكتور/ محمود حمدي زقزوق

عميد الكلية

تمهيـــد :

هناك كثير من المفاهيم التى يرددها الناس منذ أزمان طويلة ويفهمها كل فريق منهم بفهم معين يقـــترب أو يبتعد بدرجات متفاوتة من فهم الآخرين مما يوحى بأن الناس يفتقدون اللغة المشتركة التى تقرب ما تباعد بينهم من أفهام ، وإذا كان هذا أمر يحدث على مستوى الأمم والشعوب والحضارات المختلفة فإن الأمر يبدو غريباً إذا كان ذلك يحدث بين أبناء الأمة الواحدة ، ومن بين المفاهيم التى تصادف هذا الأسلوب فى التعامل معها مفهوم الحضارة ، ولأهمية التحديد الواضح للمفاهيم فإننا نود فى البداية أن نلقى بعض الضوء على مفهوم الحضارة قبل الدخول إلى لب الموضوع الذى يفصح عنه عنوان هذا البحث ، ومن هنا سنقسم بحثنا إلى قسمين على النحو التالى :

أولا : مفهوم الحضارة .

ثانيا : الإسلام والحضارة .

ويعد أول هذين القسمين بمثابة مدخل أساسى للقسم الثانى .

أولا : مفهوم الحضارة :

إن المتتبع لمفهوم الحضارة (بكسر الحاء وفتحها) فى المعاجم العربية يجد أنه يعنى عكس البداوة ، وهذا يعنى أسلوبا مختلفاً فى التعامل مع الناس والأشياء ، ونقلة فكرية أيضاً نظراً لما بين مجتمع البداوة ومجتمع الحضر من فروق .

وقد أشار ول ديورانت أيضا فى كتابه قصة الحضارة[1] ، إلى معنى

---

(١) قصة الحضارة : ول ديورانت — ج ١ ترجمة ، د . زكى نجيب محمود ص ٥ — القاهرة ١٩٧٣

قريب من ذلك حين يقول : إن الحضارة أو « المدنية فى وجه من وجوهها هى رقة المعاملة ، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن — وهم الذين صاغوا حكمة المدنية — من خصائص المدينة وحدها ، ويضيف قائلا : « إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح لكنها لاتزدهر إلا فى المدن » .

ومن كل ذلك يتضح لنا أن مفهوم الحضارة مرتبط بمفهوم التقدم فالحضارة إذن نقله تقدمية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى : تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء . وهذا كله فى إطار منظومة من القيم تتعدى الإطار القبلى الضيق إلى الدائرة الإنسانية الأوسع والأرحب .

وقد كان للاسلام دور كبير فى تنبيه الأذهان إلى هذه الدائرة الجديدة مؤكداً على العنصر الإنسانى الشامل : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »[1] .

وهذا التعارف يقتضى التفاهم والتعاون المشترك فى سبيل ترسيخ قيم إنسانية مشتركة « من قتل نفساً بغير نفس أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً »[2] .

وقد جعل ابن خلدون الحضارة غاية العمران وفى الوقت نفسه جعلها مؤذنة بفساد العمران وذلك لأنه ربط بينها وبين « التفنن فى الترف واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه ... وإذا بلغ التأنق فى هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات

(١) سورة الحجرات ١٣

(٢) سورة المائدة ٣٢

فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لايستقيم حالها معها فى دينها ولادنياها[1] » .

الطبيعة المزدوجة للحضارة :

ولكننا لانريد أن نتابع ابن خلدون فى فهمه لهذا الجانب من الحضارة ، ولعل تعريف ألبرت اشفيتسر فى كتابه فلسفة الحضارة يكون أقرب إلى ما نحن فيه حيث يقول[2] : إن الحضارة بصورة عامة هى « التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء » .

وهذا يتفق مع ماسبق أن أشرنا إليه من أن الحضارة تعد نقلة تقدمية فى الفكر وفى السلوك وفى أسلوب التعامل مع الناس والأشياء .

وهذا يعنى أن الحضارة لها طبيعة مزدوجة ، فهى من ناحية تحقق نفسها فى سيادة العقل على قوى الطبيعة ، ومن ناحية أخرى فى سيادة العقل على نوازع الإنسان ، وليس يكفى إطلاقا أن يسود العقل على الطبيعة الخارجية ، فهذه السيادة وإن كانت تمثل تقدما إلا أنه تقدم تقترن فيه المزايا بالمساوىء التى يمكن أن تعمل فى اتجاه مضاد للحضارة أو مؤذن بفسادها كما رأينا لدى ابن خلدون .

وليس هناك من شك فى أن هناك عوامل كثيرة تشترك معا فى تكوين الحضارة ، ويشير ول ديورانت فى هذا الصدد إلى عوامل جيولوجية وجغرافية واقتصادية ونفسية[3] .

(١) مقدمة ابن خلدون — طبعة دار الشعب ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) فلسفة الحضارة لألبرت اشفيتسر — ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ص ٣٤ (دار الأندلس ١٩٨٠) .

(٣) قصة الحضارة جـ ١ ص ٣ — ٦

ويفسر توينبي[1] الحضارة بأنها رد معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس فى مواجهة تحد معين ، وهذا التحدى الذى تمثله الطبيعة يختلف فى مستواه ، وبالتالى تختلف فعالية الرد عليه من جانب الشعوب بين احتمالات ثلاث : فإما أن تقوم الشعوب المعنية بوثبة إلى الإمام ، وإما أن تصاب بالتوقف والجمود ، وإما أن يلفها الفناء بردائه .

الحضارة وقضية الإنسان :

وقد لجأ مالك بن نبى فى تعريفه للحضارة إلى معادلة رياضية تقول : إن الحضارة = إنسان + تراب + وقت

وبذلك فإن المشكلة الحضارية تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية هى : مشكلة الإنسان ، ومشكلة التراب[2] ، ومشكلة الوقت ، وتقوم الفكرة الدينية بعملية المزج بين هذه العناصر الثلاثة[3] .

ولمالك بن نبى تحليلات طيبة ونظرات ثاقبة فى هذا الصدد ، ولسنا هنا نريد أن نكرر ماقاله ، ولكننا نرد أن نشير إلى أن المشكلة الحضارية الرئيسية فى نظرنا هى مشكلة الإنسان ، فالإنسان هو العنصر الفاعل الإيجابى فى العملية الحضارية كلها ، وماعداه مسخر لخدمته ومجال لنشاطه .

وإذا قلنا إن الإنسان هو كل شىء فنحن نعنى ما نقول تماماً ، وهذا يقتضينا أن نحدد ما نعنيه بمفهوم الإنسان ، وإن كان ذلك ربما يعد من أظهر الأمور ، ولكن ظهور الشىء ظهورا فائقا قد يكون سبب الخفاء .

فالإنسان هو الكائن الوحيد فى هذا الكون الذى وصفه الفلاسفة

(١) راجع : شروط النهضة لمالك بن نبى ص ٩٦ وما بعدها — دار الفكر ١٩٦٩

(٢) يفضل مالك بن نبى استخدام لفظ التراب بدلا من لفظ المادة

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ ومابعدها .

والمفكرون كل فى مجال تخصصه بأنه كائن عاقل ، أو كائن اجتماعى ، أو حيوان متدين ، أوحيوان أخلاقى ، بمعنى أن كل صفة من هذه الصفات لاتوجد فى كائن آخر فى هذا الوجود غير الإنسان ، فالإنسان وحده هو الذى ينفرد بها .

ولكن هذه الصفات ليست هى كل شىء فى الإنسان ، فهناك صفات أخرى فريدة يختص بها وهى : التقنية والتراث والتقدم .

وتتمثل التقنية أساساً فى صنع الإنسان لآلات معينة واستخدامها لغرض معين ، فإنتاج الآلات المعقدة المحددة الأهداف عن طريق عمل طويل وشاق هو عمل إنسانى خالص .

ولكن هذه التقنية التى يختص بها الإنسان كان من الممكن ألا تتطور إذا لم يكن الإنسان فى الوقت نفسه كائناً اجتماعياً ينمو فى المجتمع عن طريق التراث ، وهذا التراث ليس أمراً فطرياً فيه ، ولكنه يتعلمه ، وذلك بفضل اللغة المعقدة التى يمتلكها ، وبفضل ذلك كله يتقدم الإنسان . فهو يتعلم ، ويضيف إلى ما تعلمه الجديد عن طريق قدرته على الإبداع والاختراع .

وفضلا عن ذلك فإن تفكير الإنسان ليس دائماً مرتبطاً بغرض مادى عملى ، فهناك مجالات لاتخضع لهذا الغرض تشغل اهتمام الإنسان ، تتطلعه الدائم لاكتساب المعارف واكتشاف المجهول لايقف عند حد[1] .

ومن خلال ماتقدم يتضح لنا أن مشكلة الإنسان تتفرع إلى جوانب عديدة تتكامل فيما بينها ولاتتناقض ، ويمكن إجمالها فى العناصر التالية :

العقل بكل ما يحمل هذا المصطلح من معنى وبما له من قدرة على الإبداع ، والتدين ، والتعلم ، والأخلاق ، والنزعة إلى الاجتماع ، وهذه

(١) انظر : مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكى ومن ترجمتنا ص ١١٣ وما بعدها — مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠

النزعة تشمل ما يترتب عليها من النظام الذى يحفظ المجتمع ويتمثل فى القوانين ، واللغة والتراث والتقنية والتقدم .

والإبداع الحضارى فى هذا كله يتمثل بصفة عامة فى الفلسفة والعلم بجميع فروعه، والتقنية والفن انطلاقاً من قاعدة أساسية هى الدين . والمتتبع لتاريخ الحضارات السابقة وما تركت لنا من آثار لا تزال قائمة يستطيع أن يعرف بسهولة على ما كان للفكرة الدينية فى هذه الحضارات من دور كبير وأثر عظيم .

وهكذا نجد أن مركز الدائرة الحضارية هو الإنسان ، وأهم خصائصه العقل ، والعقل يعنى الكرامة الإنسانية واستقلال الشخصية ، ويعنى المسئولية ، ويعنى الحرية .

وإذا كانت الحرية ضرورية للتحضر — فإنها تصبح عديمة المعنى إذا لم تتوفر للإنسان وسائل العيش من القوت والكساء والمأوى ، وإذا لم يتوفر له الأمن على نفسه وماله وعرضه وعقيدته . وفى هذه الحرية تكمن كرامته الفريدة وفرصته فى تحقيق وجود إنسانى يليق بكرامة الإنسان .

الحضارة والميراث الحضارى :

ومما لا شك فيه أن الحضارة تعد امتيازاً للإنسان — فالانسان وحده صانع الحضارة — ولكن الحضارة ليست ببساطة شيئاً موروثاً أو مجبولا فى فطرة الانسان ، وإنما هى شىء لابد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً ، والتربية هى الوسيلة التى تنتقل بها الحضارة من جيل إلى جيل[1] .

ولكن الأمر لا يجوز له أن يقف عند حد الامتلاك المتجدد للحضارة.

(١) قصة الحضارة ج ١ ص ٨

فنحن مثلا وارثو حضارة فرعونية قديمة ووارثو حضارة عربية إسلامية ولكن ما قيمة ذلك إذا وقفنا بعقارب الزمن ولم نبذل أى جهد يضيف جديداً إلى ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا .

ورحم الله جمال الدين الأفغانى : فقد زاره شكيب أرسلان ذات مرة وحكى له ما يروى من أن العرب قد عبروا المحيط قديماً واكتشفوا القارة الأمريكية قبل الأوربيين، فرد الأفغانى قائلا : «إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم . فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم »[1] .

الحضارة والالتزام الأخلاقى :

ولكن مجرد الإضافة المادية إلى الموروث الحضارى لا تكفى . فالحضارة قبل كل ذلك وبعده هى التزام أخلاقى . وهذا يعنى أنها ليست مجرد حضارة إنتاج أو استهلاك ، فهذه لا تستحق أن يطلق عليها لفظ حضارة . فلا يكفى أن يقتنى المرء الحضارة مجرد اقتناء دون أن يكون ملتزما أخلاقيا بمنظومة القيم الحضارية والسلوك الحضارى . ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة ولكنه لا يسلك سلوكا حضاريا . ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر رغم الأكوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة .

وإذا قلنا إن الحضارة فى جوهرها تعد التزاماً أخلاقياً فإننا نعنى بذلك أن الحضارة مسئولية . فهى التزام أخلاقى يجعل المرء على وعى بالمسئولية الكبيرة التى يتحملها الانسان الفرد ، ليس فقط تحمله المسئولية

(١) زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١١٠ — القاهرة ١٩٧١

عن أفعاله الخاصة وإنما بمعنى معين تحمله المسئولية عن العالم الذى يعيش فيه . فكلنا نعيش فوق كوكب أرضى واحد أصبح مثل سفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب . ونحن جميعاً — سكان هذا الكوكب — مسئولون بدرجات متفاوتة عما أصاب هذا الكوكب الأرضى من تلوث فى الماء والهواء والغذاء وما أصاب طبقة الأوزون من تآكل ينذر بخطر داهم يهدد البشرية كلها . وهذا الفهم الجديد الذى يضع عنصر المسئولية فى مقدمة العناصر الأساسية التى تشكل ظاهرة الحضارة هو الذى أدى إلى انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية أو ما أطلق عليه اسم « قمة الأرض » فى النصف الأول من شهر يونية عام ١٩٩٢ فى ريو دى جانيرو لمناقشة المشاكل البيئية العديدة التى تهدد الحياة والأحياء على الأرض فى محاولة لانقاذ البشرية من الأخطار والكوارث التى لا يعلم مداها إلا الله ، تلك المشاكل التى نتجت عن التقدم التقنى المنفلت الزمام ، وما تسببه النفايات الذرية ونفايات المصانع من تلويث للهواء والماء والغذاء . فهذا المؤتمر المشار إليه يعد تعبيراً عن المسئولية الحضارية المشتركة التى أصبح سكان الأرض جميعاً مطالبون بتحمل أعبائها .

وهذه المسئولية تعنى أن الحضارة الحقيقية تضع الإنسان — الذى هو نفسه صانع الحضارة — فى قمة اهتماماتها . وإذا قلنا الإنسان فإن ذلك يعنى الإنسان بكل ما يعبر عنه ذلك من معنى :

الإنسان فى شتى جوانب اهتماماته المادية والعقلية والروحية . ومن هنا فإنه لا يجوز اختزال الحضارة فى إرضاء الاهتمامات المادية فقط أو الروحية فقط أو العقلية فقط ، بل لابد أن يكون هناك توازن بين كل هذه الاهتمامات والمتطلبات ، فالأزمة الحضارية الراهنة فى العالم ترجع فى رأى كثير من المفكرين إلى أن قدرة الإنسان المعاصر على

تشكيل ذاته على المستوى الفردى والجماعى قد تراجعت تراجعاً حاداً خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلا مادياً .

ومن هنا يعد السعى من أجل سيادة السلوك الأخلاقى فى مقابل الحضارة الشيئية البحتة مسئولية يشترك فى تحملها كل فرد . فقد ألقت المقادير فى يد الحرية الإنسانية مصير هذا النزاع القديم المتواصل حول سيادة العقل .

ولا يجوز أن يغيب عنا أن هدف الحضارة هو الإنسان قبل أى شىء آخر . وفى تأكيدنا على معنى الإنسان وكرامته وحريته لا نعدو قول الحق إذا قلنا إن الحضارة — أى حضارة — تنتهى عندما تفقد فى شعورها معنى الإنسان .

وهناك ارتباط لا ينفصم بين الأخلاق والإنسانية : فالأخلاق تذهب إلى المدى الذى تذهب إليه الإنسانية ، والإنسانية معناها توفير الاعتبار لوجود أفراد الإنسانية وسعادتهم ، وحيث تنتهى الإنسانية تبدأ الأخلاق الزائفة والحضارة الزائفة .

وإذا كان توماس هوبز قد ذهب فى تصوره إلى حد رؤية الإنسان ذئباً بالنسبة لأخيه الإنسان وأن الكل فى حرب ضد الكل فإن التصور الذى يتلاءم مع الحضارة الحقيقية أو الذى يعبر عن لب هذه الحضارة والذى ينبغى أن يصل إلى وعى الأفراد والجماعات هو « مسئولية الكل عن الكل » .

والإنسان لا يمكن أن يكون مسئولا إلا إذا كان حراً ، ومقدرته على أن يكون رائداً للتقدم بمعنى أن يفهم ماهية الحضارة وأن يعمل بها تتوقف على كونه مفكراً وعلى كونه حراً ، إذ ينبغى أن يكون مفكراً

ليكون قادراً على فهم مثله وتصويرها وينبغى أن يكون حراً ليكون فى وضع يتهيأ له منه أن يدفع بمثله فى الحياة العامة[1] .

ولا يمكن — فى حقيقه الأمر — فصل حريتى عن حرية الآخرين ، لأن الحرية لا يدركها المرء إدراكا حقيقياً إلا بممارستها عن طريق علاقته بالآخرين . فالعلاقة بين الأشخاص هى وحدها التى تجعل الحرية أمراً ممكناً .

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك ونؤكد أن الانسان لا يمكن أن يعيش ويتمتع بنعمة الحياة ذاتها إلا فى ظل علاقة إنسانية . وقد أثبتت ذلك بعض البحوث العلمية التى أجراها فريق من العلماء الأمريكيين. فقد تضمنت التجربة التى قام بها هؤلاء العلماء عزل خمسة من الأطفال حديثى الولادة فى حجرة واسعة معقمة تعقيما ممتازاً . ومجهزة بأحدث الوسائل الصحية ، وخصص لكل طفل فراش صغير أنيق فى غاية النظافة ، فإذا حان موعد الطعام دخلت الممرضة فألقمت كل طفل زجاجة لبن تتوفر فيه كل شروط الغذاء الصحى .

ولكن الممرضة — حسب التعليمات المشددة من جانب الأطباء العلماء أصحاب التجربة — لم يسمح لها بلمس الطفل أو حمله بين ذراعيها وهدهدته أو تدليله أو مضاحكته أو مداعبته بكلمة أو قبلة . فكان تعاملها مع هؤلاء الأطفال تعاملا آليا كما لو كانت تتعامل مع آلة من الآلات ، لا مع شخص بشرى

وكانت نتيجة هذه التجربة اللا إنسانية هى موت الأطفال الخمسة رغم العناية الصحية الفائقة . وكان سبب موت الاطفال — كما شخصه

(١) فلسفة الحضارة ص ٢٠ وما بعدها

العلماء — هو الحرمان من هذه العلاقة الإنسانية ، الحرمان من الحنان الأمومى أو من التدليل والهدهدة والمداعبة والقبلات. فهذا كله يمثل بالنسبة للطفل إكسير الحياة . والعلاقة الإنسانية هى التى تضمن له كل ذلك[1] ،

والمسئولية التامة تستندائما بالضرورة إلى العلاقة الإنسانية الأساسية المطلقة التى تتمثل فى المحبة والأخوة والعدالة والتراحم والتسامح بين بنى الإنسان .

والحضارة الحقيقية من شأنها أن تجعل روح التسامح تسرى بين الناس وفى ظل هذا التسامح تتاح للمرء حرية التفكير .

وقد يفكر المرء فى اتجاه خاطىء ، ولكن لفت نظره إلى الاتجاه الصحيح لا يكون عن طريق الإرغام أو القهر ، وإنما يكون بالحكمة والموعظة الحسنة . وفى ظل هذه الحضارة ينتفى التعصب الأعمى وينتفى العنف الجهول والإرهاب الفكرى .

وهذا التسامح المشار إليه يمكن أن يكون من جانب آخر بمثابة مدخل للالتقاء بالحضارات الأخرى والانفتاح عليها وإقامة حوار معها ، وهذا يعنى فتح المجال أمام التعددية الحضارية .

الأبعاد الأساسية للحضارة :

وفى نهاية حديثنا عن مفهوم الحضارة يمكننا أن نوجز فى عبارات قصيرة أهم الأبعاد التى ينبغى أن تتوفر فى أى مشروع حضارى حقيقى وذلك على النحو التالى :

(١) راجع صحيفة الأخبار القاهرية فى ١٤/٧/ ١٩٨٠ ص ١٤

١ — البعد الإنسانى : ونعنى بذلك فهما مزدوجا على المستوى الفردى وعلى المستوى العام : على المستوى الفردى من حيث ضرورة المحافظة على كرامة الإنسان وحريته كفرد ومراعاة اهتماماته المادية والعقلية والروحية ، وما يمثله ذلك من احترام عقـــله وفكره وعقيدته حتى يكون قادرا على الإبداع فى مجالات العلم والفلسفة والدين والفن . أما على المستوى العام فنعنى بذلك مراعاة الاعتبار الإنسانى بالنظر إلى الإنسان أينما كان وأنى كان من حيث هو إنسان بالمعنى الذى يحقق قيمة الإنسانية فى العلاقات بين أبناء البشر من شتى الحضارات والأديان والأجناس .

٢ — البعد الأخلاقى بمعنى الالتزام بمنظومة القيم الأخلاقية التى تعنى سيادة العقل على نوازع الإنسان وما يرتبط بذلك من التزام أخلاقى مسئول بأوسع معانى الالتزام والمسئولية .

٣ — البعد التقدمى : بمعنى دفع عجلة التقدم فى مجالات العلم والفكر والسلوك وفى أسلوب التعامل بين الناس . فالحضارة كما سبق أن أشرنا ليست مجرد ميراث يرثه الإنسان وليست مجبولة فى فطرته ، ومن هنا ينبغى أن يكتسبها المرء من جديد ويسهم بنصيبه فى الإضافة اليها والإبداع الذى يغذيها ويدفع بها إلى الأمام .

٤ — البعد الدينى : فالدين عنصر فعال فى كل حضارة لا يجوز تجاهله . وتاريخ الحضارة فى السابق وحتى الآن يبرهن على ذلك .

٥ — البعد الزمنى : بمعنى مراعاة مفهوم الزمن من حيث هو حلقات متصلة غير منقطعة ، وهذا يعنى التواصل الحضارى والحفاظ على كل ما هو جوهرى فى ذاتية الأمة ، وفى الوقت نفسه عدم تجاهل التطورات المستجدة فى الحاضر مع استشراف المستقبل .

٦ — البعد التوازنى : بمعنى ضرورة التوازن بين متطلبات الإنسان العقلية والمادية والوجدانية . فالحضارة واحدية الجانب أو التى يختل فيها التوازن تحكم على نفسها بالفناء .

٧ — البعد العالمى : بمعنى مراعاة المتغيرات الدولية وإدراك واقع التعددية الحضارية والتمايز الحضارى فى العالم الذى لا يعنى بالضرورة التناقض أو التضاد . ومن جانب آخر الانفتاح على كل الحضارات والحوار معها فى سبيل خير الإنسانية وترسيخ أسس السلام والعدل والاستقرار فى العالم .

* * *

وغنى عن البيان أن كل هذه الأبعاد التى ينبغى أن تتوفر فى أى مشروع حضارى حقيقى متوفرة جميعها فى تعاليم الإسلام . فالإسلام قد كرم الإنسان وفتح أمامه المجال للانطلاق بلا حدود فى آفاق العلم والمعرفة من أجل إعمار الأرض ودفع عجلة التقدم فى المجتمع البشرى ، وأمرنا أن نسير فى الأرض وندرس ما كان من أخبار السابقين ونستفيد من كل الخبرات البشرية ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها .

وتعاليم الإسلام تحرص على تأكيد مبدأ الوسطية وإقامة التوازن بين متطلبات الإنسان المادية والعقلية والوجدانية ، وفضلا عن ذلك فإن الإسلام يعد دين الإنسانية « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .(١)

وكل هذه الأبعاد محوطة فى الإسلام بسياج من القـــيم الأخلاقية الرفيعة ، ومن هنا لخص محمد ﷺ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .(٢)

---

(١) سورة المائدة آية ٣٢

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

ومن كل ذلك يتضح أن الحضارة بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى تعد فريضة إسلامية وواجبا دينيا وعنصرا أساسيا من عناصر دين الإسلام . وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل نبينه فى القسم الثانى من هذا البحث .

ثانيا : الإسلام والحضارة :

قبل الدخول فى تفاصيل هذه القضية يجدر بنا أولا أن نلقى نظرة على الوضع الراهن فى العالم الإسلامى ومحاولات الربط بين الإسلام كدين وقضية التخلف التى تسود العالم الإسلامى منذ فترة طويلة .

١ — تمهيد :

يعانى العالم الإسلامى فى العصر الحاضر من أزمة طاحنة متعددة الجوانب ، ففى الوقت الذى تتلاحق فيه التطورات العلمية والفكرية والحضارية فى مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده المادية والمعنوية ، العلمية والدينية ، الفكرية والحضارية — : يخيم على العالم الإسلامى .

وقد حدا ذلك ببعض خصوم الإسلام فى الغرب إلى إلصاق هذا التخلف بالإسلام نفسه ، إذ هو فى زعمهم دين يشد أتباعه إلى التخلف حيث يشكل عائقاً أمام التقدم العلمى والتطور الحضارى ، وذلك بما يشتمل عليه من تعاليم جامدة ، وتشريعات صارمة ، تحد من الانطلاق فى مجالات التمدن والحضارة والرقى والتقدم .

ويستدل خصوم الإسلام على مقولتهم هذه بالواقع المشاهد فى العالم

الإسلامى ، فهذا العالم الإسلامى كله يقع اليوم فى صف دول العالم الثالث المتخلف ، فإذا كان الإسلام دين حضارة وتقدم لما وجدنا هذا الوضع المتخلف فى عالم الإسلام ، وهكذا يرجع هذا التخلف إذن إلى الإسلام ذاته .

ومن هنا فإن المسلمين إذا أرادوا أن يتحرروا من أسر هذا التخلف فإن عليهم أن يتحرروا من الجمود الإسلامى ، وأن يأخذوا بالنموذج الغربى الذى دفع بالغرب إلى قمة التقدم والحضارة .

ويبدى — فى هذا الصدد — أحد المستشرقين المبشرين نصيحة للمسلمين لدفعهم إلى النهوض من وهدتهم بقوله : « إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه ، أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة »(١).

فهذا الدين الذى ظهر فى الصحراء لم يعد يستطيع مسايرة الحياة المعاصرة ، ومن هنا فلابد من طرح ما فيه من جمود حتى يمكن للمسلمين اللحاق بركب العصر .

وقد سار خلف هذا الزعم الباطل نفر من أبناء الأمة الإسلامية التابعين للغرب فى فكرهم تبعية ذليلة من منطلق مركب النقص والشعور بالدونية إزاء الغرب المتفوق ، وكأن الإسلام لم يقدم للإنسانية أى إسهام فى مجالات الفكر والعلم والحضارة .

وليس من غرضنا هنا أن نشغل أنفسنا بالرد على هذه المزاعم ، فالاشتغال بذلك يعد لوناً من ألوان ردود الأفعال التى لم يعد يجدر بنا أن نقف عندها طويلا ، بل ينبغى علينا أن نقتحم المشكلات المحيطة بنا بأسلوب

---

(١) راجع : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى الدكتور محمد البهى ص ٦١٢ — دار الفكر بيروت ١٩٧٣ .

عقلانى بعيد عن الانفعالات العاطفية، بصرف النظر عما يقال هنا أو هناك، من أجل البحث عن حلول سليمة لمشكلاتنا المصيرية، وعلى رأسها قضية التخلف الحضارى الشامل الذى لا يخفى على أحد، وذلك على الرغم من وجود قشرة حضارية يلمحها المرء هنا أوهناك.

إننا كمسلمين لا نستطيع أن ننكر أن واقع الأمة الإسلامية واقع متخلف ومحزن ويدمى النفس الإنسانية، ولكن لا نستطيع أن ننكر فى الوقت نفسه أن هذا الواقع المحزن منفصل عن النموذج الإسلامى بمائة وثمانين درجة، ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جدية من هذه القضية المصيرية الأولى. بل ظلت حتى يومنا هذا مشغولة بمحيط الدائرة، وببعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات، واختلط لديها سلم الأولويات، فانقلبت الضروريات هامشيات والهامشيات ضروريات، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعقلة المستنيرة، وضاعت أصوات المتعقلين من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التى تتصف فى بعض الأحيان بشدة حدتها، وانفلات وعيها بما يدور حولها فى عالم اليوم.

فما هى الأسباب الكامنة وراء هذه الأزمة الطاحنة المتمثلة فى هذا التخلف الحضارى الشامل فى العالم الإسلامى؟ وما مدى مسئولية الإسلام والمسلمين عنها؟ وما الذى يمكن أن يسهم به الإسلام فى صنع الحضارة والتقدم الإنسانى؟ وهل يمكن أن تدخل الحضارة فى دائرة الواجبات الإسلامية الضرورية التى يمكن أن توصف بأنها فريضة إسلامية؟.

٢ — الحضارة فريضة إسلامية:

لقد عرضنا فى القسم الأول من هـذا البحث بإيجاز شديد للملامح الأساسية التى تمثل الشروط الضرورية لقيام حضارة من الحضارات، أو التى ينبغى أن تقوم عليها الحضارة بصفة عامة، وعلينا الآن أن نتجه نحو الإسلام لنرى ما إذا كان يشتمل على هذه الشروط الضرورية أم لا؟.

ولعل هناك من يعترض علينا فى هذا الصدد على اعتبار أن هذا البحث ربما يفهم منه افتراض أن الإسلام لم يصنع حتى الآن حضارة، وهذا أمر مخالف للواقع: فالإسلام قد أقام حضارة زاهرة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ، وقد امتدت من أقصى الصين شرقاً إلى أقصى الأندلس غرباً، وهذا يعنى أن الإسلام فيه كل المقومات الأساسية لبناء الحضارة.

وهذا اعتراض له وجاهته، ولكننا لا نبحث الآن تاريخاً مضى وانقضى، ولكننا نبحث فى مشكلة واقعية نعيشها، ولابد من مواجهة الأمر الواقع لنرى ما إذا كانت المشكلات الحضارية بمعطياتها المعاصرة تجد لها فى الإسلام حلولا أم لا وذلك من منطلق أن الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان.

ومن هنا فإن من الأهمية البالغة تبيان هذا الأمر بمنتهى الوضوح حتى لا يتطرق هناك لبس أو يتسرب شك إلى عقل المسلم فى مدى صلاحية إسلامه للبناء الحضارى الإنسانى فى أى وقت وفى أى مكان.

ونحن نزعم فى هذا الصدد أن الحضارة بالمفهوم الذى ارتضيناه تعد فريضة إسلامية، وأن الخروج من هذه الوهدة التى تردت فيها الأمة الإسلامية يعد واجباً دينياً لا يجوز للمسلمين أن يتهاونوا فى شأنه بأى حال من الأحوال.

ولعلنا بهذا المصطلح نثير مشكلة فقهية حـــول مصطلح الفريضة فى الإسلام . ولكننا لا نريد أن نضيع وقتاً فى هذه المناقشات اللفظية فسيتضح لنا من خلال ما سنعرضه هنا أن استخدامنا لهذا المصطلح استخدام سليم ، فإن استعادة العزة التى كتبها الله للمؤمنين والتمكين لهم فى الأرض من الأمور التى لا تقل فى أهميتها عن فريضة الصلاة والصيام، بل هذه العزة وهذا التمكين يمثلان الضمان لإقامة فرائض الإسلام كلها ، وصدق الله العظيم القائل «الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر»[1] .

ويكفى أن نشير هنا فى البداية إلى القاعدة الأصولية المعروفة التى نقول: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

(ا) الإنسان محور اهتمام القرآن :

وإذا كان الإنسان بصفة عامة هو العنصر الفاعل الإيجابى فى العملية الحضارية كلها — : فإن هذا يقتضينا أن نبحث موقف الإسلام من الإنسان لنتعرف على مكان الإنسان ومكانته فى تعاليم الإسلام. ومن خلال ذلك نستطيع أن نتعرف على موقف الإسلام من الحضارة .

إننا إذا تأملنا فى القرآن الكريم وهو فى حقيقته كتاب جاء لنتدبر معانيه ونتأمل فيها وصولا إلى معرفة الحق الذى لا مراء فيه ، وإلا حق علينا قول القرآن نفسه : «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»[2]،

نقول إذا تأملنا فى القرآن الكريم فسيتضح لنا أن الإنسان هو محور اهتمام القرآن، فالقرآن الكريم كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان .

(١) سورة الحج ٤١ (٢) سورة محمد ٢٤

وقد تكررت كلمة الإنسان فى القرآن ثلاثاً وستين مرة ، وجاء الحديث بلفظ بنى آدم ست مرات ، وبلفظ الناس مائتين وأربعين مرة .

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحى القرآنى على رسول الله ﷺ فسيتضح لنا التركيز على العناية بشأن الإنسان بصفة خاصة ، ويتجلى ذلك بوضوح من ذكر لفظ الإنسان مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى. مع التركيز أيضاً على العلم وأدواته : «اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم»[1] .

ولا غرابة فى ذلك، فالإنسان قد جعله الله خليفة فى الأرض، وكرمه وفضله على سائر المخلوقات ،وميزه بالعقل والإدراك ، وحمله أمانة عمارة الأرض ، وصنع الحضارة فيها .

وإن مسئولية الإنسان الكبرى التى ارتضى أن يتحمل أعباءها بعد أن أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال — هـــذه المسئولية تعد تكريماً للانسان ، لأن تحمل المسئولية يعنى الحرية ، ويعنى استقلال الشخصية ، وتتركز هذه المسئولية الكبرى — التى تتمثل فى الخلافة عن الله فى الأرض لعمارتها — على مسئولية الإنسان عن نفسه . ومن هنا فعليه نحو نفسه كفرد واجبات لا يجوز أن يفرط فيها ، وهذه الواجبات تتمثل فى استخدام كل ما وهبه الله له من قوى وطاقات فيما خلقت من أجله ، فالعقل وظيفته التفكير والفهم والإدراك، والحواس وظيفتها إدراكية فى مجالاتها ، ووقت الإنسان ثمين لابد أن يقدر قيمته ، ويشغله فيما يفيد ، وصحته لا يجوز له أن يفسدها، أو يهمل فيها ، وإلا لن

(١) سورة العلق (راجع: الخصائص العامة للاسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص٦١ مكتبة وهبة ١٩٧٧) .

يكون قادراً على تحمل مسئولياته نحو نفسه ونحو الآخرين ، وعلمه لابد أن يحسن استخدامه ويؤدى حقه ، فطلب العلم إذا كان فريضة على كل مسلم ومسلمة كما قرر رسول الإسلام - ﷺ - فإنه من ناحية أخرى مسئولية سيحاسب الإنسان عما فعل بها يوم القيامة، كما سيسأل أيضاً عن ماله كسباً وإنفاقا ، وفى ذلك كله يقول النبى عليه الصلاة والسلام :

« لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم »[1] .

وفضلا عن ذلك فالإنسان مسئول عن استخدامه أو عدم استخدامه لوسائل الإدراك العقلية والحسية ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »[2] .

ومن هنا سيقول الكافرون يوم القيامة : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم »[3] .

وهذا يبين لنا أن عدم استخدام وسائل الإدراك من عقل ، وحواس فيما خلقت من أجله يعد ذنباً من الذنوب ، وينزل بالإنسان من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية بل إلى أسفل منها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الإنس والجن لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل »[4] .

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) سورة الإسراء ٣٦
(٣) سورة الملك ١٠ ، ١١
(٤) سورة الأعراف ١٧٩

وليس هناك دين من الأديان رفع من شأن العقل ، وأعلى من قدره مثلما صنع القرآن ، وقد حرص الإسلام على إزالة كل العوائق التى تعترض سبيل العقل البشرى حتى يستطيع ممارسة دوره كاملا فى هذا الوجود، ومن هنا رفض الإسلام التبعية الفكرية والتقليد الأعمى ، ولم يرتض رسول الإسلام — ﷺ — أن يكون المسلمون إمعات يسيرون وراء كل ناعق ، بل عليهم أن يحكموا عقولهم ويميزوا بين ما يضرهم وما ينفعهم ، فلا حجة لأحد فى الإسلام بعد كتاب الله وسنة رسوله، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد ما عدا صاحب الشريعة . وكذلك حرر الإسلام العقل من الخرافات والأوهام والشعوذات . وجعل المسئولية فردية فى أساسها فليست هناك خطيئة موروثة ، وهذه المسئولية الفردية لا تقوم إلا على أساس من حرية الفرد وإطمئنانه إلى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله وماله . وقد جعل الإسلام الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية التى قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا ، وهذه المقاصد الضرورية هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال[1] .

وغرس الإسلام فى نفس المؤمن العزة وقرنها بعزة الله وعزة رسوله « ولله العزة ولرسوله وللمومنين »[2] . وقرر الإسلام ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأن المؤمن لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وبذلك صان الإسلام كرامة الإنسان .

وأكد القرآن الكريم الكرامة الإنسانية فى قوله تعالى: « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[3] .

---

(١) راجع الموافقات للشاطبى جـ٢ ص ١٠ — دار المعرفة بيروت .
(٢) سورة المنافقون ٨
(٣) سورة الإسراء ٧٠

وعقيدة التوحيد وعقيدة ختم النبوة فى الإسلام تعنيان أيضا رفع الوصاية عن العقل البشرى . وبذلك ينفتح المجال أمام العقل ليمارس وظيفته دون عوائق .

وقد كان مبدأ الاجتهاد فى الإسلام من المبادى التى فتحت الباب أمام العقل ليصول ويجول فى مجال استنباط الأحكام الشرعية ، وإذا كان الإسلام قد أجاز للعقل هذا الحق فى مجال الأحكام الشرعية فمن باب أولى يكون ذلك أمرا حتمياً فى مجال الأمور الدنيوية ، والاجتهاد فى حقيقته دعوة إلى الإبداع فى كل مجالات العلوم والفنون والصنائع .

(ب) مجالات النشاط الإنسانى :

وهكذا يتضح لنا أن الإسلام قد هيأ المجال الملائم أمام الإنسان لاستخدام كل طاقاته الإبداعية ، ووفر له كل الشروط الضرورية التى تساعده على القيام بمهمته الكبرى المتمثلة فى خلافته لله فى الأرض ، والنهوض بمسئوليته فى عمارة الأرض ، وجعل الله الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما مجالا لنشاط الإنسان ، فكل ما عدا الإنسان فى هذا الكون مسخر لخدمة هذا الإنسان ومجال لنشاط الإنسان ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[1] ، كما يقول أيضا : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[2] .

وقد حدد الحق تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية فى هذا الكون بقوله : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[3] . وهذا يعنى أن الله قد

(١) سورة الجاثية ١٣

(٢) سورة فصلت ٥٣

(٣) سورة هود ٦١

فوض إلى الإنسان عمارة الأرض ، والعمارة نقيض الخراب ، وتعنى تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها صالحة للانتفاع بها وبخيراتها . والاستعمار فى الآية الكريمة هو طلب العمارة . فالإنسان مطلوب منه — طبقا للمشيئة الإلهية — أن يجعل الأرض عامرة تصلح للانتفاع بها ، وأن يبحث عن أفضل السبل لتيسير الحياة فيها ، وكشف ما فى الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات من أجل خير البشرية جمعاء .

وقد أعطى الله الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التى تحكم الأرض وتحكم الكون كله — والقوانين التى تحكم الإنسان ، وما حباه الله به من قوى وطاقات ، حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك ، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون .[1]

وعمارة الأرض تتحقق بالعلم الذى هو فريضة إسلامية ، وبالتقنية التى هى تطبيق للعلم ، ومن أجل ذلك تدخل تحت مفهوم الفريضة ، ولكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هى الحضارة بإطلاق ، وكذلك ليست هى العمارة بإطلاق ، بل هى أحد جوانب العمارة ، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية . أما الجانب الآخر الذى به تكتمل الحضارة — أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى — فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية .

ومن هنا فإن الحضارة فى المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض مادياً ومعنوياً ، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض .

وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفى وحدها لبناء الحضارة ، بل لابد أن ينضم إلى ذلك أيضا سيطرة الإنسان على

(١) راجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ص ٥٦ ـ دار الشروق

وعقيدة التوحيد وعقيدة ختم النبوة فى الإسلام تعنيان أيضا رفع الوصاية عن العقل البشرى . وبذلك ينفتح المجال أمام العقل ليمارس وظيفته دون عوائق .

وقد كان مبدأ الاجتهاد فى الإسلام من المبادى التى فتحت الباب أمام العقل ليصول ويجول فى مجال استنباط الأحكام الشرعية ، وإذا كان الإسلام قد أجاز للعقل هذا الحق فى مجال الأحكام الشرعية فمن باب أولى يكون ذلك أمرا حتمياً فى مجال الأمور الدنيوية ، والاجتهاد فى حقيقته دعوة إلى الإبداع فى كل مجالات العلوم والفنون والصنائع .

(ب) مجالات النشاط الإنسانى :

وهكذا يتضح لنا أن الإسلام قد هيأ المجال الملائم أمام الإنسان لاستخدام كل طاقاته الإبداعية ، ووفر له كل الشروط الضرورية التى تساعده على القيام بمهمته الكبرى المتمثلة فى خلافته لله فى الأرض ، والنهوض بمسئوليته فى عمارة الأرض ، وجعل الله الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما مجالا لنشاط الإنسان ، فكل ما عدا الإنسان فى هذا الكون مسخر لخدمة هذا الإنسان ومجال لنشاط الإنسان ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[1] ، كما يقول أيضا : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[2] .

وقد حدد الحق تبارك وتعالى مهمة الإنسان الحضارية فى هذا الكون بقوله : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[3] . وهذا يعنى أن الله قد

(١) سورة الجاثية ١٣
(٢) سورة فصلت ٥٣
(٣) سورة هود ٦١

فوض إلى الإنسان عمارة الأرض ، والعمارة نقيض الخراب ، وتعنى تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها صالحة للانتفاع بها وبخيراتها . والاستعمار فى الآية الكريمة هو طلب العمارة . فالإنسان مطلوب منه — طبقا للمشيئة الإلهية — أن يجعل الأرض عامرة تصلح للانتفاع بها ، وأن يبحث عن أفضل السبل لتيسير الحياة فيها ، وكشف ما فى الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات من أجل خير البشرية جمعاء .

وقد أعطى الله الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التى تحكم الأرض وتحكم الكون كله — والقوانين التى تحكم الإنسان ، وما حباه الله به من قوى وطاقات ، حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك ، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون .[1]

وعمارة الأرض تتحقق بالعلم الذى هو فريضة إسلامية ، وبالتقنية التى هى تطبيق للعلم ، ومن أجل ذلك تدخل تحت مفهوم الفريضة ، ولكن العمارة على هذا النحو المشار إليه ليست هى الحضارة بإطلاق ، وكذلك ليست هى العمارة بإطلاق ، بل هى أحد جوانب العمارة ، ويمكن أن يطلق عليها مصطلح الحضارة الشيئية أو المادية . أما الجانب الآخر الذى به تكتمل الحضارة — أو عمارة الأرض بالتعبير القرآنى — فإنه يشمل كل القيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية .

ومن هنا فإن الحضارة فى المفهوم الإسلامى تعنى تحقيق المشيئة الإلهية فى عمارة الأرض مادياً ومعنوياً ، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفة لله فى الأرض .

وهكذا نجد أن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفى وحدها لبناء الحضارة ، بل لابد أن ينضم إلى ذلك أيضا سيطرة الإنسان على

(١) راجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ ١ ص ٥٦ ـ دار الشروق

توازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية ، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله ، وبذلك يكون الإنسان فى صلة مستمرة بالله خالق الكون تصحح له دائما مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق ، فيظن أنه سيد هذا الكون مع أن دوره لا يعدو أن يكون سيدا فى هذا الكون ، وهذا هو معنى خلافته لله فى الأرض .

(ح) القيم الحضارية المنسية :

مما تقدم يتضح لنا أن الإسلام بما يشتمل عليه من تعاليم قد هيأ السبيل أمام المسلمين لعمارة الأرض ، أو بناء الحضارة على أفضل الوجوه ، غير أننا فى صلتنا بالإسلام قد ضيقنا رحمة الله الواسعة ، وحصرنا الإسلام فى مجموعة الشعائر المعروفة ، فاختفت من حياتنا — أو كادت — مجموعة القيم الحضارية المشرقة ، وأصبحت فى واقعنا الإسلامى قيماً منسية ، لا أثر لها فى حياتنا ولا تأثير .

ونود فى هذا الصدد أن نشير مجرد إشارات عابرة إلى بعض النماذج من هذه القيم المنسية على سبيل التذكرة بها ومن هذه القيم :

أولا : قيمة التفكير :

وهى من القيم التى حث عليها القرآن الكريم ، وأشار إليها فى صيغ عديدة دليلا على أهميتها ، وما تؤدى إليه من إبداع فى شتى أنواع العلوم والفنون والصنائع . ولكننا بنظم التعليم لدينا قد نجحنا فى تعليم أبنائنا الخوف من التفكير ، وقمنا بصبهم جميعاً فى قالب واحد يربطهم بحرفية المكتوب ، وأغلقنا أمامهم فرص الإبداع والانطلاق ، وأصبح الفكر لدينا فى اللسان الشعبى أمراً مرادفاً للغم والهم حيث لا تجد الأم التى تحنو على أبنائها دعوة أفضل من أن تدعو الله أن يبعد عنهم الفكر .

ونحن مطالبون بأن نفكر ، وأن يقض التفكير مضاجعنا ويقلقنا فى سبيل البحث عن مخرج لنا من أزمتنا الطاحنة .

ثانياً : قيمة العمل :

يرتبط العمل فى القرآن الكريم بالإيمان ، ويرتبط بقيمة أخرى هى قيمة إتقان العمل واستمراريته ، حتى ولو قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل كما يقول الرسول ﷺ (١) ويرتبط بقيمة العمل قيمة الوقت ، وأسلافنا كانوا يقولون : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، وكانوا يقولون أيضاً : الوقت من ذهب ، ولكن هذه القيمة قد تحولت على أيدينا إلى شىء أرخص من التراب ، وتفيد التقارير الرسمية أن متوسط عمل العامل فى بلادنا لا يتجاوز نصف ساعة فى اليوم ، وقد نسينا أن الله سبحانه قد أقسم بالعصر ، وبالفجر ، وبالضحى ، وبالليل ، وبالنهار ، وهى تمثل أجزاء من الوقت دليلا على أهمية هذه القيمة ، ولفت أنظارنا إليها ، وبوجهنا لاستغلال أوقاتنا الاستغلال الأمثل ، فنحن مسئولون يوم القيامة عما صنعنا بأوقاتنا .

ثالثاً : قيمة النظافة :

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى الحديث الشريف القائل : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »(٢) ، فقد جعل النبى إماطة الأذى عن الطريق جزءا لا يتجزأ من الإيمان ، ولو حقق المسلمون هذا الجزء من الحديث النبوى لكانت شوارع المسلمين فى قراهم ومدنهم أنظف الأماكن فى الدنيا كلها .

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل جـ٣ ص ١٩١ طبعة اسطنبول بعنوان : الكتب الستة مجلد ٢٢

(٢) رواه الإمام مسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائى (فيض القدير جـ ٣ ص ١٨٥) بيروت — دار المعرفة .

رابعاً : قيمة مراعاة شعور الغير :

وهنا نشير أيضاً إلى هذا التعليم النبوى الرائع فى قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه »[1] .

خامساً : قيمة النظام :

لقد أصبحت حياتنا خليطاً عجيباً من الفوضى على المستوى الفكرى والدينى والعلمى والحياتى فى حين أن تعاليم الإسلام فى الصلاة وفى الجهاد — على سبيل المثال — قد أعطت لنا مثالاً رائعاً فى النظام .

سادساً : قيمة الجمال :

الإسلام دين الجمال يكره القبح وينفر المسلمين منه. وتعاليم الإسلام كلها تحث على الجمال فى كل شىء ، والحديث الشريف الصحيح يقول: « إن الله جميل يحب الجمال »[2]، والمسلم مأمور بأن يأخذ زينته عند كل مسجد، وكما يكون الجمال مادياً كما نراه فى الأجسام والأشياء من حولنا يكون أيضاً جمالاً معنوياً يتمثل فى الأخلاق الجميلة والصفات النبيلة.

والكون بما فيه من تناسق وإحكام أعظم مثال على الجمال الإلهى فى هذا الوجود ، وأوصاف الجنة فى القرآن الكريم تعد لوحات فنية رائعة الجمال .

إننا نفترى على الإسلام إذ نجعل منه ديناً ينفر من الجمال ويدعو إلى الكآبة والتجهم .

---

(١) رواه البخارى ومسلم (فيض القدير ج ١ ص ٤٣٥) .

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه ٨٩/٢ بيروت ١٩٧٢ — دار إحياء التراث العربى

إننا نظلم الإسلام حين نجعل منه ديناً عدواً للعواطف والوجدانيات، وعدواً للتعبير والجمال عن هذه العواطف بقصيدة جميلة ، أو أغنية ذات كلمات عفيفة أو لحن موسيقى يرقق المشاعر ، أو رسم جميل يبرز آيات الله فى الكون .

لماذا ننسى أن أبا بكر رضى الله عنه قد دخل على عائشة فى يوم عيد فوجد عندها جاريتين تغنيان فقال أبو بكر : أبمزمور الشيطان فى بيت النبى ﷺ ، فقال النبى الكريم : « يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا »[1] .

ولماذا ننسى أيضاً ماروواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها زفت جارية يتيمة كانت فى حجرها لرجل من الأنصار ، فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء ، فقال يا عائشة : ألا بعثت معها من يغنى فإن الأنصار قوم يحبون الغناء، فلو بعثتم معها من يقول : أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم »[2] .

تلك كانت بعض الإشارات العابرة من تعاليم الإسلام فى مجال القيم الحضارية ، وما أكثرها ، وهذا مجال واسع يطول شرحه[3] .

(د) نحو حضارة إسلامية معاصرة :

والسؤال الآن هو : إذا كان هذا هو موقف الإسلام من الحضارة فما بال المسلمين قد تخلوا عن ركب الحضارة ، وارتضوا لأنفسهم منذ

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه ج ١ ص ٦١٢ — طبعة عيسى الحلبى .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٣٩١ طبعة بيروت .

(٣) وليقرأ من يريد كتاب « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » للإمام الكبير ابن القيم ، وكتاب « طوق الحمامة » للإمام ابن حزم . فقد احتفل كل منهما بقيمة الجمال احتفالا لاحد له ووصفا مالها من آثار عميقة فى النفس البشرية .

قرون أن يكونوا فى مؤخرة الركب لا يشاركون فى صنع الحضارة ، وإن كانوا يستخدمون منتجاتها ؟ إن الحضارة المعاصرة إن باعتنا منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها ، وكل المعانى التى لا تلمسها الأنامل ، فعملية التحضر عملية منبعثة من الداخل أساساً ، وهذا يعنى أن هناك شيئاً ذاتياً أساسياً يجب أن يقود عملية التحضر ، ولهذا يمكن أن نرى فرداً من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة ، ولكنه لا يسلك سلوكاً حضارياً ، ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه إنه متحضر ، رغم الأكوام الهائلة التى يحيط بها نفسه من منتجات الحضارة ، ومن هنا فعدم مشاركة المسلمين فى صنع الحضارة يعنى أنهم قد تخلوا عن مسئوليتهم فى عمارة الأرض وتركوها لغيرهم وهى تلك المهمة التى أكدها القرآن الكريم .

فماذا يريد المسلمون ؟

هل ينتظر المسلمون انهيار الحضارة المعاصرة حتى يقيموا حضارتهم على أنقاضها ؟ إذا كان الأمر كذلك فسيطول بهم الانتظار .

أم يرى المسلمون أن واجبهم فى المشاركة فى صنع الحضارة المعاصرة يتمثل فى الاهتمام بالجانب الروحى الذى أهملته الحضارة الحديثة حتى يقيم المسلمون بذلك التوازن الذى اختل فى الحضارة الحديثة ؟

إن هذه مهمة جزئية ليست هى مايريده الإسلام من أبنائه ، فالإسلام لا يفصل الجانب المادى عن الجانب الروحى ، والنموذج الذى ينبغى أن نسعى إليه ونقدمه لأمتنا ولغيرنا لا بد أن يكون جامعاً للأمرين ، وإلا كنا خائنين لرسالتنا نرتضى لأنفسنا أن نكون لقمة سائغة فى فم القوى العظمى . إننا فى عالم اليوم فى عصر لم يعد يعترف إلا بالقوة . وقوة اليوم لم تعد هى قوة السلاح فقط أو قوة الإيمان فقط ، وإنما هى القوة التى تجمع بين الأمرين ، وهذا هو جوهر تعاليم الإسلام .

فلا يجوز لنا إذن أن نتخلى عن فريضة العلم ، وما يرتبط به من تقنية بجوار قيامنا بفرائض الروح والقلب .

ومن هنا فإنه لا مناص لنا من أن نتمكن من حضارة العصر بكل منجزاتها المادية ، وتطوراتها العلمية والتقنية ، فى الوقت الذى نراجع فيه موقفنا من الإسلام وتعاليمه ، لنزيل الغبش الذى غطى على تعاليم الإسلام فحجب عنا الرؤية السليمة الواضحة لهذه التعاليم على مدى القرون الماضية ، وهذا يتطلب تحولا جذرياً فى العقلية الإسلامية لتنسجم مع تعاليم الإسلام تصحيحاً للأوضاع الغريبة ، والتقاليد البالية ، والقصور العقلى ، والفهم السقيم الذى أراد أن يشد تعاليم الإسلام لتنسجم مع ما درجنا عليه من عقلية متخلفة ، فالعيب إذن فينا نحن المسلمين وليس فى الإسلام . فالإسلام سيظل شامخاً بتعاليمه ، إذا اشرأبت أعناق المسلمين وقلوبهم وعقولهم نحوه بصدق جذبهم إلى أعلى ، وإذا أرادوا أن يخضعوه إلى فهمهم السقيم تخلى عنهم ، وتركهم يسقطون فى وهدة التخلف .

إن الأمر الذى يدعوا للأسى والحسرة أننا كلما أدركنا ما نعانيه من قصور وعجز وتخلف فى المجال الحضارى فى عالم اليوم لجأنا إلى حيلة دفاعية نبرر بها موقفنا فنخدع أنفسنا بأنه إذا كان قد فاتنا اللحاق بركب الحضارة الحديثة المؤسسة على العلم والصناعة فإننا ننعم بإيمان دينى لا ينعم بمثله بناة تلك الحضارة .

وهذا ادعاء ينقض نفسه بنفسه ، لأننا لو كنا حقاً قد تشربنا الدين الذى نؤمن به لوجب علينا بحكم هذا الدين نفسه أن نسبق الدنيا فى إقامة الحضارة القائمة على كشوف العلم ومايبنى عليها ، لأن الإسلام دين يحض على العلم بأى معنى فهمنا كلمة «علم» ، فإذا كان العلم الذى بنيت عليه حضارة عصرنا هو — أساساً — العلم بقوانين الطبيعة ، فذلك ما دعانا إليه القرآن الكريم كلما دعانا إلى تدبر خلق الله ، فخلق الله هو هذا الكون بشتى كائناته وظواهره ، وتدبر هذه الكائنات والظواهر لا يعنى النظر إليها نظرة المتفرج ، بل يعنى تعمقها والوصول إلى درجة العلم بالأسس التى

تحكم سلوكها والقوانين التى تنظم مسيرتها ، وذلك من صميم النشاط العلمى وما ينطوى عليه .

فإذا أمرنا القرآن الكريم بأن ننظر إلى الإبل كيف خلقت أو إلى السحب كيف تتجمع لتنزل ماءها إلى أرضنا فتحييها بما تنبته من نبات، فإن الهدف من ذلك ينتهى بنا إلى درجة العلم بالحيوان أو العلم بالنبات. وينطبق ذلك على كل كائن أو ظاهرة مما يجب علينا بحكم الدين أن نتناوله بالنظر[1]، لكننا للأسف لا نفعل شيئاً من ذلك ، ونعتقد أن مجرد قراءة القرآن وحفظه يكفيان لاكتمال إيماننا بالدين ، فأين ذلك من قول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . إن كثيراً من آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الظواهر الكونية والكائنات المختلفة تنتهى بالدعوة إلى حث القوى الفكرية لدى الإنسان لتقوم بأداء وظيفتها فى هذا الصدد ممثلا ذلك فى قائمة الأفعال التى تعبر عن التفكير والتعقل والتفقه والاعتبار والتدبر والتبصر والتذكر والعلم وغيرها من أفعال مشابهة .

لقد ركزت الصحوة الإسلامية على أمور العبادات وهذا أمر مطلوب، واهتمت بالكثير من المظاهر والشكليات ، وهذا من قبيل الهزل فى وقت الجد .

إن المسألة الملحة اليوم هى البحث عن مخرج للمسلمين من وهدة التخلف الشامل ، وذلك لن يكون إلا باستعادة الوعى بالإسلام .

والصحوة الإسلامية تظل مجرد كلمة خالية من المضمون طالما لم تصل إلى مرحلة عودة الوعى بالإسلام، وعودة الوعى هى الحالة التى يمكن أن تكون المنطلق الحقيقى للفهم الشامل للإسلام بوصفه دين العزة والكرامة ، دين التقدم والحضارة ، دين العلم والمدنية، دين الدنيا والآخرة ، دين التوازن

(١) د. زكى نجيب محمود ـ صحيفة الأهرام ٩٠/٦/٥

بين الجسم والروح، دين الاعتدال والسماحة، دين السمو المادى والمعنوى ، وبصفة عامة دين السلوك المسئول على جميع المستويات الفردية والاجتماعية والدينية . والسلوك المسئول هو دائماً سلوك حضارى ، والتعاليم التى تنتج هذا السلوك المسئول هى التعاليم التى تدفع معتنقيها إلى صنع الحضارة والمشاركة فيها ، لا بوصفهم مجرد مستهلكين أو متفرجين ، ولكن بوصفهم فاعلين مؤثرين .

والتعاليم التى تستطيع أن تصنع ذلك كله هى تعاليم الإسلام .

إن ديناً بهذا الوصف لا يمكن أن يجعل أمر الحضارة من المسائل الهامشية ضمن اهتماماته، وإنما يجعلها فى قائمة أولوياته، وهذا مافهمه المسلمون فى السابق ، وبذلك استطاعوا فى فترة زمنية قصيرة أن يقيموا أعظم حضارة فى التاريخ، ومن هنا يمكننا مرة أخرى أن نقرر أن الحضارة فريضة إسلامية ، وواجب دينى لا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنه ، بل عليهم أن يجعلوه فى قمة أولوياتهم حتى يعودوا مرة أخرى أعزة ، ويستعيدوا مكانهم الريادى ومكانتهم العليا فى عالم اليوم .

والله من وراء القصد ، وهو يقول الحق ويهدى السبيل .